# المدينة الحاضرة، آراء ومفاهيم

أ/محمد علوات
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د/ فوزي بودقة– أستاذ محاضر
جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا

*مدخل:*

في الوقت الذي تعرف فيه البشرية تطوراً–في شتى مناحي الحياة– لم يُعرف له مثيل من قبل، خاصة بعد الثورة الصناعية، برز هناك اهتمام خاص بتطور المدن والحواضر بشتى فروعها نظرا لارتباطها المباشر بالحياة اليومية للإنسان، وازداد هذا الاهتمام مع تطور المفاهيم والآراء وكذا انفتاح الإنسان على محيطه، وتشعب علاقات هذا المحيط بالأنشطة المختلفة.مما حتم على المختصين ولوج عالم التخطيط بهدف الوصول إلى تنمية عمرانية مستدامة تساير متطلبات الوقت الراهن دون الإخلال باحتياجات الأجيال القادمة.ولأن"الاجتماع ضروري للنوع الإنساني"
(ابن خلدون) بدأت مناطق التجمعات البشرية في التطور، ومع مرور الوقت نشأت المدن بمختلف أصنافها وتعددت ظروف نشأتها، وبدأ التركيز على دراستها مما أدى إلى التوسع في أنماط هذه الدراسة، والانتقال من دراسة المدينة، ككيان منفصل إلى دراسة العلاقات مع الظهير المباشر، ومع تعدد الوظائف والأنشطة وازدياد الحركة منها وإليها انتقلت الأبحاث نحو إقليمها.

زاد حجم المدن والحالة هذه، وبات منها الصغيرة و المتوسطة والكبيرة والحواضر الكبرى **(Métropoles)**والمدن العملاقة **(Mégalopoles)**.انتظم بعضها تلقائيا دون خطط محددة، واتبع البعض الآخر خططا ضمن أنظمة حضرية، أكثر تنظيما في سياق شبكات مدن على مستوى الإقليم، ومن هذا برزت الدراسات الإقليمية للمدن، بعد أن أصبح للمدينة دور فعّال في هيكلة المجال **(Structuration de l'espace)**.

ويعتبر باتريك قيديس**(P.Geddes 1854–1931)** أول من ركز على البعد الإقليمي للمدينة، وحظيت دراسة العلاقات الإقليمية بين المدن، ومناطق نفوذها باهتمام كبير نظراً لاعتماد المدن الرئيسي، في حياتها على نوع وعدد و تركز الخدمات، والفعاليات الاقتصادية

و الاجتماعية التي تقدمها أي مدينة إلى إقليمها، و هذا ناجم من قاعدة معروفة مفادها، أنّ أية مدينة لا يمكن أن تكتفي ذاتيا بل من الضروري جداً و لكونه من مقومات وجودها و استمرارها هو تبادل المنافع بينها وبين إقليمها." [1]

فالدراسات الإقليمية الحديثة ترتكز على المدينة كأساس لتنمية الإقليم وتهيئته، وقد تطورت هذه الدراسات وتعددت المدارس الفكرية انطلاقا من المدرسة الفكرية التجريدية إلى المدرسة الكمية الحديثة ولم تعد جغرافية المدن علما نظريا يهتم بتطوير نظريات وقوانين عامة فقط، بل أصبحت علما تطبيقيا يساعد في حل المشكلات التي تواجه المدن، وتطبيق نتائج أعمال التخطيط الحضري، والمساعدة في عمليات اتخاذ القرار من قبل المسؤولين في المدن.

ومن ثَمَّ انتقلت الدراسات لترسيخ تقاليد جديدة،فحسب هارتشو(**Hartshorn 1992**) فقد تعززت الجغرافيا بتقليد جديد يُعرف بالمنهج الإقليمي و بالتالي تطورت الفكرة إلى الاهتمام والتركيز على العلاقات المتبادلة بين المدن المختلفة أو بين النظم الحضرية. [2]

## 1- المدينة ومعادلة التحضر:

حسب العديد من المفكرين تعتبر المدن أحد أكثر الإبداعات البشريـــة تعقـــيدا، حيث" تتضمن المدن كلاً من النظام والفوضى، الجمال والبشاعة، من جهة أخرى، فبإمكانها أن تبرز أفضل أو أسوأ ما في البشرية حيث أنها تجسد المظهر المادي لكل من التاريخ والثقافة، فضلاً عن احتضانها لكل من الابتكار، والصناعة، والتكنولوجيا، وروح المبادرة، والإبداع علاوة على ذلك، فتجسد هذه المدن أيضاً أكثر الأفكار الإنسانية نبلاً، بالإضافة لتجسيدها لكل من الطموحات والتطلعات، بيد أنها قد تصبح مستودعاً للعلل الاجتماعية ما لم يتم تخطيطها وإدارتها على النحو السليم . كما تعمل المدن على توجيه الأنظمة الاقتصادية الوطنية من خلال تنمية الثروات، وتعزيز التنمية الاجتماعية، وتوفير فرص العمل، بيد أنه بإمكانها أيضاً أن تصبح أرضاً خصبة لمظاهر الفقر والتهميش، والتدهور البيئي[3]

---

1- صبري فارس الهيتي، جغرافية المدن ، دار صفاء للنشر و التوزيع ، عمان، الأردن ، 2002،ص14

2- كايد،عثمان أبو صبحة،جغرافيا المدن، عمان، الأردن، 2003،ص30

3- برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية(الموئل)،تقرير:حالة مدن العالم2009/2008 المدن المنسجمة المقدمة ص X

كما أن المدن"قد تتشابه في نموها، ولكن لكل مدينة نكهتها و مميزاتها الخاصة في نشأتها ومراحل تطورها:ماضيها، موقعها وموضعها، وحجمها المساحي والسكاني خصائصها الوظيفية، تراثها الثقافي، أدائها الاقتصادي-الاجتماعي وإدارتها وتسييرها[4] ونظراً لاختلاف ظروف نشأة المدن وطبيعة وظائفها وكذا اختلاف حجم سكانها، يصبح من الصعب الخروج بتعريف موحد للمدينة، فهي من جهة مكان للتنمية والنشاط البشري، ومقر تركز السكان، الأنشطة، السلع والخدمات ومن جهة أخرى تلعب المدينة دوراً أساسيا في هيكلة مجالها الحضري.

كما اختلفت الأسس في تعريف المدينة فتباينت بين الحجم والكثافة، إلى التحديد الإداري وحتى التاريخي؛ ومنهم من اعتمد في تعريفه على المظهر الخارجي أو على أساس العلاقات الاجتماعية أو على أسس وظيفية. ومع كل هذا فإن تحديد المدينة لا يمكن أن يستند إلى معيار واحد.وأحسن ما يمكن وصف المدينة به أنّها:" مستوطن يعيش فيه مجتمع مستقر غالبا ما يكون ضخم العدد، كما أنّ كثافته مرتفعة، ولا يعتمد كل أفراده أو معظمهم في رزقهم على الزراعة وهو في نشاط دائم وله علاقات خارجية وعلى درجة عالية من التنظيم"[5].

ومن المعلوم أن عدد المدن في العالم يعرف ازدياداً ملحوظاً وهذا مرتبط ارتباطاً وثيقا بتطور ظاهرة التحضر وهي عملية حديثة النشأة خصوصا في دول العالم النامي، رغم أن المدن تعتبر ظاهرة قديمة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد.

---

4- فوزي بودقة،تحليل الظواهر العمرانية بمدينة الجزائر ومجالها المتروبولي،رسالة دكتوراه دولة،جامعة هواري بومدين الجزائر 2006 ،ص10

5- عبد الفتاح وهيبة ، جغرافية المدن الإسكندارية ، مصر 1975، ص 35

### 2. التحضر والحضرية:

وينبغي التنبيه إلى الفرق بين مصطلحي التحضر والحضرية، فالتحضر حسب ياتس وكارنر (1976) هو عملية معقدة للتغير الاقتصادي والاجتماعي، عملت على نقل المجتمع من عالم الريف إلى عالم الحضر، ويشار إلى مستوى التحضر بالمرحلة التي وصل إليها قطر في فترة زمنية معينة. أمّا اصطلاح الحضرية فيشير إلى العملية التي تدل على نمط الحياة التي يتميز بها المجتمع في المدينة ويعرفها نالس **(Nels A 1959)** بأنّها طريقة حياة الناس[6].

ويرى(المصيلحي **1995**) أن المفهومان مرتبطان ارتباطا وثيقاً، فالحضرية ما هي إلانتاج نهائي لعملية التحضر وعوامله والقوى الدافعة إليه، في حين أن التحضر يطلق على عملية التوسع من حيث المراحل والعمليات المتسلسلة والآليات والتحولات المرتبطة بتلك الظاهرة [7].

في حين أن التحضر والحضرية ليسا بالضرورة وجهان لعملة واحدة، فمن الممكن أن نجد مجتمعات قد بلغت نسباً عاليةً من التحضر، غير أنّ مستوى الحضرية (نوعية الخدمات المرافق ونوعية الحياة)منخفض جداً بها، وهذا الأمر يظهر بوضوح في مدن العالم الثالث، فدول هذا العالم تعرف نموا في عدد سكان الحضر، نتيجة الهجرة الريفية أساسا، كما تتميز الأنظمة الحضرية بها بسيطرة المدينة الأولى، حيث يظهر التركز الشديد لمختلف القطاعات، هذا الواقع أفرز ظاهرة فريدة ألا وهي تضخم الحجم السكاني، ورافقه توسع المجال الحضري للمدينة العاصمة، بالخصوص نحو التجمعات المجاورة لها، ممّا جعلها ترتقي من مدينة كبيرة إلى مصف الحواضر.

وحسب آخر إحصائيات برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية (الموئل) فإنّ أعلى معدلات النمو الحضري قد تم تسجيلها في الدول النامية، حيث أن مدن هذه الأخيرة تستوعب ما يناهز الـ 5 ملايين نسمة شهرياً،كما أنها المسؤولة عن **95%** من إجمالي النمو السكاني في المناطق الحضرية في العالم.

---

6- كايد،عثمان أبو صبحة ، سبق ذكره ص55

7- صبري فارس الهيتي، التخطيط الحضري، دار اليازوري العلمية للنشر و التوزيع،عمان، الأردن، 2009،ص35

### 3. مفهوم الحاضرة والحوضرة:

تعتبر **الحاضرة (métropole)**: من الظواهر العمرانية الجديرة بالدراسة، وإن كانت الحواضر قديمة النشأة فقد تطور مفهومها بتطور الحياة العامة للبشر، فمنذ " فجر التاريخ وجدت المدن المتروبولية كنَيْنَوى، بابل، روما...فمدن المتروبول القديمة كانت الاستثناء وليس القاعدة، من حيث قلة عددها بين المدن القديمة [8].

فالحاضرة(**métropole**)و الحوضرة(**métropolisation**)ظاهرتان مرتبطتان ببعضهما في علم الجغرافيا والتهيئة العمرانية،فيمكن القول بأنّ الحوضرة هي مجموع المراحل التي تمر بها الحاضرة من نشأتها إلى مراحل تطورها وامتدادها العمراني وارتباطها بمجال تأثيرها، حيث تضم المدن الواقعة في فلكها إليها. والمدينة الحاضرة حسب فكرمان (**G.Wackermann2000**):"يتم فيها استحداث أنشطة بفضلها تتمكن دوليا دون باقي الأنشطة الأخرى، وبفقدانها لهذه الأنشطة المستحدثة تفقد شخصيتها "[9].إذن هي المدينة الأم: مبدئيا، المدينة الأولى في البلاد، أو الإقليم... وهي مدينة يتوفر فيها كل شيء(**Brunet R 1993**).هي شكل من أشكال العمران-يرتكز كغيره من المدن على نواة رئيسية- ذات حجم كبير جدًا، يعتبر الوزن الديموغرافي أول مميزاتها، فالحوضرة إضافة إلى كونها عملية تركز سكاني كبير هي أيضاً "حركة تمركز اقتصادي ومالي ترافقها عملية توضع التجمعات الحضرية ضمن شبكة حضرية"[10]. والقطاعات الاقتصادية بها يغلب عليها القطاع الثالث الراقي: الإدارة العامة والتأطير، المديريات

المقرات الاجتماعية للشركات الكبرى، الخدمات المالية، البنكية والتأمينات، الوظائف والخدمات الراقية وكذا الوظائف السياسية... هذه الميزة تسمح لها بلعب دور الموجه والمتحكم-بمساعدة المدن المحيطة-في هيكلة المجال وحركة السكان.وحسب **J.F.Troin**

---

[8]- فوزي بودقة، سبق ذكر خ ص 12

[9]- G.WACKERMANN.2000 Géographie urbaine. Edition Ellipses.France2000.p168

[10]- VHERVOUET. La périurbanisation dans la métropole nantaise. Université de Nante.France2005.P15

(2000) [11].يمكن اعتبار حاضرة كل تجمع حضري ملائم للتأقلم، والتقارب واستقبـــال واستقطاب النخب في شتى المجالات،وبأداء أعلى مقارنة بذلك الموجود بالمدن الأخرى المحيطة أو المنافسة،كما أنه تجمع حضري مرتبط(**connectée**) مباشرة مع الشبكات العالمية،بفعل وسائل اتصال وإعلام ذات تكنولوجيا عالية الجودة متلائمة ومتطلبات العولمة والانفتاح الاقتصادي، ومُوَزِّع (**distributive**) من خلال قدرته على نشر وإيصال مختلف خدماته نحو مجاله، ممّا يساهم في اتساع مجال تأثيره، ومندمج (**intégrée**) ضمن المنظومة الوطنية و الجهوية والعالمية.

ويرى (**S.Conti et G.Sriano1989**) [12].أنّ الحاضرة تتميز عن باقي التجمعات الحضرية بجمعها بين الخصائص الثلاثة التالية :

– الخاصية الإدارية أو التوجيهية(**Directionalité**): أي القدرة على تركيز الوظائف الأساسية ومصادر القرار وكذا مراقبة نظم الإنتاج، المبادلات، قرارات الاستثمار، حركة رؤوس الأموال ونشر المعلومات على مستوى دولي.

– **الشمولية** (**Globalité**): من خلال تسخير كافة الإمكانيات المتاحة والممكنة في إطار المنافسة وتوفير الخدمة للحصول على وظائف مختلفة ومعممة.

– **الارتباط**(**Connectivité**):حيث تسمح باندماج الخصائص الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية والبيئية للحاضرة.

وتتجلى أهمية الحاضرة في معدل الخدمات الراقية التي توفرها، حجم التكنولوجيا العالية التي تمتاز بها مختلف مؤسساتها و مردودية العنصر البشري.من كل هذا فالحاضرة وبتعبير أدق هي مركب حضري، مجالي ووظيفي، حيث تساهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في التحكم في المحيط بفضل المؤسسات والوظائف ذات البعد الدولي المتواجدة بها.

بمتابعة الإحصائيات الدولية للتطور الحضري نجد أن عدد المدن ذات**10000**نسمة قد ارتفع في الفترة مابين سنتي **1950**إلى**1990**من**10600** إلى **26000** مدينة أما المدن المليونية فقد قفز عددها من **84** إلى**297** في تلك الفترة.مع ارتفاع ملحوظ لنسبة التحضر

---

[11]-Jean-Francois Troin, du bon usage du terme métropole notamment dans le monde arabe,revue journal du Méditerranée France .2000.P3

[12]- G.WACKERMANN سبق ذكره ص ص 168 – 169

من**28%**إلى **43%**. حيث كان عدد السكان في المدن المتروبولية السبعة عشر سنة**1900** يقارب **36** مليون نسمة بنسبة **2%** من سكان المعمورة ،لتصبح هذه النسبة **8.7%** من السكان سنة **1950**ليرتفع عدد السكان بالمدن المليونية الـ **297** إلى **871** مليون نسمة سنة **1990** بنسبة تقدر بـ **16.6 %** من السكان و**38.3%** من السكان الحضر في العالم[13].

و عرف العالم الثالث كغيره من بقاع العالم تطور هذه الظاهرة، فقد تشكلت العديد من الحواضر لكنّها تتميز بجمعها للعديد من المتناقضات، نتيجة تراكم الضغوطات الاجتماعية والاقتصادية مما خلق العديد من الصعوبات الإدارية والمالية التي أصبحت تواجه السلطات والجماعات المحلية، حيث أصبحت هذه الحواضر محاطة بأحزمة الفقر **(ceintures des pauvreté)** وأهم مظاهرها: المساكن القصديرية، انخفاض المستوى المعيشي وتدني ظروف الحياة، تفشي اللاأمن الناتج. عن تنامي الآفات الاجتماعية الخطيرة

**الصورة: أحزمة الفقر حول مدينة ريوديجانيرو –البرازيل–** [14].

ووصل عدد المدن المليونية في العالم العربي **17**مدينة، أكبرها القاهرة الكبرى بأكثر من **16** مليون نسمة عام **2005**. حاضرة الجزائر **5** مليون نسمة، الخرطوم بما يزيد عن **4** مليون نسمة، من هذا فإن المدن الحواضر ورغم اختلاف موقعها وحجمها فإنّها تشترك في خصائص بنيوية للمجال متقاربة، فالحاضرة هي عقدة **(Nœud)** ضمن شبكة، فهذه

[13]- G.WACKERMANN - سبق ذكره ص 172 بتصرف

[14]- هيئة الأمم المتحدة ، مدن العالم 2008- 2009 ، ص 105

العقدة تقوم بوظائف صناعية وأنشطة القطاع الثالث، إضافة إلى أنشطة أخرى جاذبة أي تقوم على العديد من المؤسسات المختلفة كما ونوعا. كما تعتبر ظاهرة تعدد الأقطاب(**multipolarité**) في مجال الحاضرة إحدى الثوابت وميزات الحواضر المعاصرة، والتي تساهم بشكل كبير في الديناميكية العمرانية في مجال الحاضرة .

وفي إطار التحولات العمرانية التي تعرفها الجزائر جاء قانون **01-20** المؤرخ في **27** رمضان **1422**هـ الموافق لـ 12 ديسمبر 2001 المتعلق بتهيئة الإقليم و تنميته المستدامة كمفتاح لوضع أساس لمرحلة جديدة من جيل المدن ألا وهي الحواضر ففي مادته الثالثة جاء ما يلي:" **الحاضرة الكبرى**:التجمع الحضري الذي يشمل على الأقل**300.000** نسمة ولها قابلية لتطوير وظائف دولية زيادة على وظيفتها الجهوية والوطنية"، من خلال توفير التجهيزات و المنشآت القاعدية التي تضمن إنتاج وانتشار الوظائف وبالخصوص الراقية منها وكذا التحكم في مراقبة المبادلات دون إهمال دور الإدارة الذي يعتبر أساس وجودها كحاضرة.

لقد حاولنا في الفقرات السابقة القيام بمحاولة تبسيط مفهوم هذا النوع من المدن الحواضر، والذي في الحقيقة لا يستطيع القيام بمفرده، وبعبارة بسيطة لا توجد حاضرة في العالم يخلو مجالها من مدن تخضع في الأصل لسلطتها، وفي نفس الوقت هي أحد دعائمها، لما تتوفر عليه من إمكانات وطاقات تسمح لها بلعب دورٍ لا يستهان به.

## مراجع البحث:


- برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية(الموئل)، تقرير :حالة مدن العالم 2009/2008 المدن المنسجمة
- صبري فارس الهيتي، التخطيط الحضري، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،2009
- صبري فارس الهيتي .جغرافية المدن، دار صفاء للنشر والتوزيع،عمان الأردن، 2002
- عبد الفتاح وهيبة، جغرافية المدن، الإسكندرية، مصر، 1975
- فوزي بودقة ، تحليل الظواهر العمرانية بمدينة الجزائر ومجالها المتروبولي، رسالة دكتوراه دولة،.جامعة هواري بومدين ، الجزائر، 2006
- كايد، عثمان أبو صبحة ، جغرافيا المدن، عمان، الأردن، 20
- G.WACKERMANN. Géographie urbaine. Edition Ellipses. Paris. France 2000
- Jean- François Troin, du bon usage du terme métropole, notamment dans le monde arabe, revue journal du Méditerranée France. 2000
- V HERVOUET. La périurbanisation dans la métropole nantaise. Université de Nantes. France 2005